حرمة القبور

بقلم اسبيدار جودورف
للأستاذ محمد لطفي جمعه

نظر القاضي إلى المتهم نظرة جد وأسى ، وقال له : أيها المتهم هل لديك ما تقوله مضافاً إلى الدفاع الذي فاه به محاميك فأنت بلا ريب آخر من يتكلم

فأجال المتهم نظـــره في الحاضرين ثم شد على نفسه كمن يعتزم أن يقوم بأعباء حمل ثقيل أو يحط عن كاهله عبئاً وقال :

نعم أيها القاضي ! سأتكلم ! لقد لفظتني الحياة من صلب فلاح خشن ، ورحم امرأة من بنى جلدته وأهل طبقته ، في قرية من أقصى قرى الريف البولوني ، منذ خمسة وخمسين عاماً . وكنت وأبي وأمي وإخوتي وهم أربعة وأخواتي وهن خمس نعيش جميعنا في قاعة صغيرة ضيقة لا نافذة لها ، سوى تلك التي فتحت في جدار مشترك بيننا وبين الأنعام ، وعلى هذه النافذة أو الجدار الذي كان قاعدة لها توضع في كل عشية « مسرجة » من التنك[1] لها شريط أسود مشبع بالبترول والحباب فتخرج من الدخان أكثر مما تبعث من ضوء . وكنا من الضيق والضنك بحيث كانت أمي تخشى على عفة أخواتي من إخوتي ، وكانت تغمغم دائماً قائلة : « إن اختلاط الجنسين خطر » ولذا صممت أن تكون هي ورجلها حجاباً حاجزاً بين البنات والصبيان من أسرتها البائسة

فسأله القاضي : ألم تكن تلك المرأة تخشى على عفة الصبيان من بعضهم بعضاً وكذلك البنات ؟

فأطرق المتهم وقال دون أن يرفع بصره إلى وجه القاضي :

— لم يكن الفساد قد وصل إلى هـذا الحد في القرى . ولا تنس أن هذا التاريخ يرجع إلى أربعين عاماً . فنظر إليه القاضي وقال : استمر ... !

— وكان أبي — تغمده الله برحمته — مدمن الشرب فكان يضيع كل ما يربحه وتربحه أمي وإخوتي في الحانة حتى اضطررت على حداثة سني أن أعمل عند صانع أحذية في المدينة المجاورة ، وكان هذا الرجل — صانع الأحذية — قاسياً غاشماً فكان يعاقبني أحياناً بالطعن بمديته التي يقطع بها الجلد وطوراً بالجلد بسوط من عصب الثور المفتول . ولم يكن أحد يفكر في إنقاذي من مخالبه أو رفع شكواي إلى الشرطة لأن رجالها — رجال الشرطة —

(١) معدن أبيض رقيق يستخرج من شواطئ بحيرات أمريكا ويعرف هنا باسم الصفيح

تعريف بالقصة

اسبيـــدار جودورف كاتب روسي منفي في لندن وهو خصـم البولشفيك ، بل عدولدود للسوفييت وهو من أكبر خصوم ستالين ولذا نراه يصور المشاعية (كوميونزم) تصويراً قاتماً ، ويمزج قصصه التي تنشرها مجلات أرجوسي وستراند وبلاكوود وماي رفيو بالعشق والاجرام والفلسفة . ومعظم التصاوير التي يلونها بألوان زاهية أو مظلمة منتزعة من الحياة . ولذا آثرنا نقل هذه القصة التي تنطوي على محاكمة متهم ذي شخصية نادرة المثال . يشرح حاله بما لم يأت به أعظم مدره في الدفاع عن مذنب برىء . ولما كانت تهمته تدور حول جريمة انتهاك حرمة المقابر فقد جعلها المؤلف عنواناً لقصته

كانوا يصلحون أحذيتهم ويخصفون نعالهم فى حانوته الملعون . غير أننى كنت أقبل العذاب والعقاب راضياً لو أننى تعلمت شيئاً من صنعة الاسكاف ، فقد كان اللعين يضن بها ، ولا يبوح بأسرارها إلا لولديه اللذين طالما لطخا وجهى بمادة « الرسراس » ليضحكا منى ويسليا والدهما على حسابى . أما أمى المسكينة — طيب الله ثراها — فكانت تلتمس رزقها فى الشوارع والطرق ، وتدخر ما تكسب لقوت أولادها وبناتها وللغض عن أبى حين يسرق بعض النقود ليشترى بها أكواباً من الكحول الذى أحرق كبده وقضى على حياته. كانت المسكينة تطهى الطعام فى بيوت المتوسطين ، وتغسل الثياب وتمسح الخشب وتنظف الجدران وتبيع الخبز القديم « المرجوع » وتذبح الدجاج والأوز لليهود ولا ترفض عملا تجد فيه كسبا إلا ما كان يمس العرض والشرف . وفى إحدى الليالى جاء والدى نصف مخمور ، فأيقظنا جميعاً ، وبدلا من أن يقسم بيننا فطيراً أو كعكاً قال لها بمسمع منا جميعاً :

جميلة جداً شربة القوقاز ، وعادات جورجيا الصغيرة التى يعيش فيها المسلمون والنصارى على قدم المساواة . إن الأسرة الكبيرة كأسرتنا يمكنها أن تبيع بعض أولادها وبناتها بمبالغ حسنة ، تتخلص من متاعبهم وتفتح لهم أبواب الرزق فى قصور الأغنياء . ربما كانت إحدى بناتك يا امرأة تكون سلطانة أو أميرة شرقية لو أنك تمكنت من بيعها ! وكذلك أحد أولادك ...

فزأرت أمى فى وجهه كأنثى الأسد ، وقالت له : أصمت أيها الخبيث اللعين ، الطامع السكير ، حتى أولادى تفكر فى بيعهم لتشترى لنفسك بثمنهم خمراً . خسئت أيها الوغد المخمور . إننى أقتلك قبل أن تفكر فى هذا . فضحك والدى — رحمه الله — لأننى لا يحق لى أن أسبه أو أنسى الانتساب إليه ، إذا لم أكن ولده ، فابن من أكون ؟ أفضل أن أكون ابن أكبر سكير فى العالم على أن أكون مجهول الأب ، ولئن أعدت شتائم أمي فى حقه ، فلها أن تشتمه ما شاءت لأنها زوجته . أما أنا فالله يغفرلى ولا يسمح لى باقتراف هذا الجرم .

وكنت عندذلك فى الرابعة عشرة من عمرى وقد تعلمت مبادئ القراءة والكتابة عند قسيس القرية الاب جرنجو ارسينكفيز ، فذهبت إليه من الغداة وشكوت له كل شئ ، وقلت له إن والدى يفكر فى بيعنا صفقة واحدة كالمواشى ! فتوسط فى توظيفى عند يهودى يخرج ماله بالفوائد ويعمل بالربا فلم أطق سماع تنهدات البؤساء والبائسات من عملائه وتركته لأدخل فى بنك لبيع الأراضى بالتقسيط وبناء المنازل الصغيرة للمستخدمين ، وقد أتقنت الكتابة والحساب فى ذلك المصرف وتعرفت بكثيرين من رجال المال والأعمال ، فنقلتنى إدارة المصرف إلى مدينة ثيلنا بترقية . وبعد عام ونصف عام كنت أثناءها أبعث بمعظم راتبى إلى أسرتى ، أفلس البنك فجأة وانقطعت مصادرى وموارد ى وعجزت عن دفع أجرة غرفتى وظنت صاحبة الدار بى الظنون ، فأغلقت باب الغرفة من الخارج وجعلتنى حبيسا بها ، فلم أذق طعاما ولا شرابا ولم أقض حاجتى . ولما كان سقف الغرفة مصنوعاً من الآجر المرصوف رصفاً بغير بناء فقد تمكنت من الفرار من أعلى الدار بأن خرقت رأسها ! . . . أما الأيام والليالى التى قضيتها بدون طعام ، فلا يمكننى أن أحصر

عددها . وبعد فترة من الزمن اشتغلت بالتمثيل فنجحت نجاحا لم يكن فى حسبانى ، فقدزادنى طول قامتى وحسن هيئتى وارتفاع جبهتى واعتدال أنفى قبولاً عند الرجال والنساء. وكنت أتقن — يالتهكم الأقدار — تمثيل أدوار الملوك والأمراء والزعماء والخطباء والمشوقين. وما زلت أدأب وأنشط وأعمل بثبات وأتقى الوقوع فى شراك النساء ، حتى جمعت ثروة لا بأس بها ، فابديت عذراً إلى مدير الفرقة وعدت إلى وطنى ومسقط رأسى لانقاذ والدتى وإخوتى ولأترك لهم ما جمعت من مال ، ولم أكن أدرى أن يد الزمان لاتنفك تعمل بالتدمير والتخريب فى بيوت الفقراء والمساكين ..

فقد قضى أبى نحبه فى السجن إثر مشاجرة فى حانة ، وسقط جدار قديم على رأس أمى وهى تغسل فى بيت ، وسقط بعض اخواتي فى مهاوى العار ، وتشرد إخوتى فلم أعثر منهم إلا على ولد أبله تركته فى الرابعة من عمره ووجدته فى العاشرة يتسول فى الطرق ، فأنقذته وهو فى آخر رمق وحملته إلى المستشفى ولكنه مات بين يدى . وقد تزوجت إحدى أخواتى بشُرْطى ، ولكنه كان يضربها كل يوم بالجلد الذى يتمنطق به أو بحمائل سيفه إلى أن أورثها الجنون ، فحملها إلى ملجأ المعتوهات

أما البيت الذى كانت تؤوينا إحدى غرفه فقد تهدم — حتى ذكرى بؤسنا لم تبق فى مكانها . فكانت عودتى أليمة بقدر ما رجوت من هناء وفوز على المقادير ، فأدركت أن المنكود منكود وإن توهم السعد !

عندئذ ضاقت الدنيا فى وجهى ، فأردت أولاً أن أحصل على إذن من الحياة ، [1] وأن أبدأ ذلك بتوديع الموتى . فلم أهتدِ إلى قبور والدىّ ، طبعاً . هذا مفهوم ، لأن أبى كان مدفوناً فى قبر مجهول فى جبانة المشنوقين فى شرق مدينة دومسكوي . وكانت أمى ملحودة فى مدافن الفقراء المنبوذين بجوار جبل جراتر الشاهق الذى يقف حداً بين قوتينا وبين مدينة ليتوانيا . فأنى لى أن أهتدى إلى قبرين لحاملين من الفقراء بين عشرات الألوف من قبور الحاملين ؟

فقصدت إلى المدافن وودعتها جميعاً بخطبة وجيزة وكذلك إلى المستشفيات وإلى أماكن الدعارة والسجن ظناً منى أن واحدة من أخواتى أو واحداً من إخوتى لا يزال حياً يرزق ويتألم فى بعض تلك النواحى من جهنم الدنيا وجحيم هذه الحياة . تصور أننى لم أودع أحداً فى بيت أو مدرسة أو أسرة أو مخبز أو طاحونة .. أو حتى مقهى أو فندق ولكن ودعت أرواح أهلى وأشباحهم فى المقابر والمداعر والمستشفيات والسجون . . كان آخر يوم تركت فيه المدينة يوم أحد فقصدت إلى الكنيسة وصليت ، وبعد الصلاة دنوت من كرسى الاعتراف لأعترف ، لأننى ما زلت مسيحياً أرثوذكسياً على المذهب السُّنّى القويم والخطة الكنسية الاغريقية المثلى . ولكننى بدلاً من الاعتراف فاجأت القسيس المتناوم بهذا السؤال :

— قل ياأبتاه لماذا يكافأ الأشرار فى هذه الدنيا بخيراتها على شرهم ويجازى الأخيار فى هذه الدنيا بشرورها وسيآتها على خيرهم ؟ قل وأوجز ، فانى أوشك أن أخرج من هذا الدين إن لم أجد

(١) لعله أراد أن يغير خطته فيودع موتاه قبل ذلك .

جواباً شافيا قبل غروب شمس هذا النهار .

فرفع القسيس اللبق عقيرته وأجاب :

— لا تتعجل ياولدى ولا تيأس ، لن أطيل عليك الكلام ولن أعذبك بالثرثرة التى لا طائل وراءها . إن الذى ذكرته مشاهد ومعروف . وهو حقيقة لا خيال ، وأمر واقع لا وهم ولا ضلال . والجواب عليه أنه أمرٌ مجهول السبب ، لا تفسيرله عندنا فى الكتب . ولم يهتد أحد من آباء الكنيسة إلى تعليله تعليلا حسنا يحسن السكوت عليه .

فقلت له: شكراً لك ياسيدى ! أستودعك الله لقد كنت صريحاً معى وهذا يكفينى . وحينئذ أيقنت أنه لا توجد عدالة في العالم مادام الأخيار فى بلاء والأشرار فى هناء والدين عاجز عن تفسير حالها.

سافرت من المدينة التى قريتى من ضواحيها إلى مدينة أخرى فأنفقت معظم ما ادخرت فى المرح والشراب والطعام ومغازلة بنات الهوى .

وكنت أحياناً أغشى أماكن الدعارة وأختار فتاة فأطعمها وأسقيها وأحسن إليها بصدقة متوهماً أنها إحدى أخواتى الصغيرات . وقد نسيت مرة أن أسأل امرأة عن اسمها فلما قضيت منها حاجتى (واخجلتاه) سألتها عن اسمها قالت : ايزيدورا، وكان هذا اسم صغرى شقيقاتى فكدت أجن وشرعت فى قتلها . ولكننى قلت لها ما اسم أبيك وأمك وما هى المدينة التى نشأت بها فأجابتنى بسرعة مدهشة إنها تشيكوسلافية من مدينة كراكوف مقاطعة بيلوم، وأيدت قولها بأدلة حاسمة . وهي وشم على خصرها ونخذيها . فأفقت من الجنون الذى أصابنى لحظة وخرجت من بيت المرأة لا ألوى على أحد ولا شئ .

وأصابنى الكسل فى روحى وعقلى فأمسيت خاملاً يائسا . ولم أجد ما أقتات به فى مدينة بريسكابيولونيا الغربية فلم أستطع التسول لحسن هيئتى وقوة بنيتى فبعت ثيابى وارتديت ثياب متشرد من أبناء السبيل وكانت غاية فى الرثاثة . ودخلت على صاحب مصنع فى مكتبه ، وشكوت له سوء حالى وفقرى وبطالتى وعطلى ، وأضفت إلى ذلك أن والدى كان يعرف والده فرق لى وعرض علىّ العمل فى مصنعه وهممتُ أن أقبل ما عرض ولكننى خفت من نظام الحياة التى بدأت أثور عليها وخشيت أن أعمل فتتحسن حالى فأرضى عن الدنيا ومن فيها فأعدل عن سورة الغضب التى غمرتنى . فقلت له إننى قد وفقت إلى عمل سأبدؤه بعد يومين، وسألته أن يقرضنى قرضا حسناً لأصلح من شأنى ريثما أختم أسبوع العمل الأول فأقبض مرتبى وأرد إليه دينه مشكوراً . فصدقنى ودفع لى خمسين كورونا وودعنى وهمس فى أذنى أنه سيضع فى غرفة البواب بدلة ثياب كاملة وحذاء وقبعة أستطيع تسلمها فى المساء فشكرته . وعدت إلى باب المصنع وتقمشت ووضعت ثيابى الممزقة فى مكان أمين، لحاجتى إليها ، وقصدت إلى أقرب حانة فأفرغت جيبي وملأت رأسى واحتلت على المال والطعام والخمر والنساء ، أى أننى احتلت للحصول عليها جميعاً ونجحت . لقد بدأت أنتقم من هذا المجتمع المجرم الذى أصابتنى منه الغصص ونالنى منه البلاء العظيم . لقد فتك المجتمع بأهلى ، وعصف بأسرتي ، وتسلى على عقل أبى وقلب أمى كما يلهو الطفل بصغار القطط والعصافير فيخنقها وتلفظ أنفاسها وهو يضحك . لقد كان أبى وأمى وإخوتى يموتون جوعاً وفقراً

وعرضاً والمراقص حافلة والمآدب قائمة واللاهي سائرة في طريقها والمغاني آهلة بالغواني والفتيان من كل لون ونوع . لقد احتلت واختلست وسرقت ، لا لأجل السرقة ، ولكن لأجل الانتقام . . . على الأقل لعرض الصغيرات التي تخيلت أنهن مولودات للشرف والعفة ولو في ظلال الفقر والفاقة . وعند ذلك وقف وكيل النيابة العامة وقال :

— هل يرى القاضي العادل أن هذا الكلام يعد دفاعاً عن المتهم . إنني أطلب إسكاته . أرى أنه يهيج نفسية الجماهير من أعماقها ويوغر صدورها على المجتمع المحترم الموقر ...

الجمهور — يغمغم ويهمهم « الحرية ! حرية الدفاع ، لقد أعطاه القاضي حق الكلام فلا يحق لأحد أن يحرمه ! »

المحامي عن المتهم — إن سحب الكلام من المتهم بعد السماح له يبطل الاجراءات ويحتم إعادة المحاكمة ، فهل حضرة النائب على استعداد لسماع ثلاثين شاهداً للاثبات والنفي ومرافعة تطول ثلاثة أيام ؟ ثم لن يكون مناص من أن يؤذن للمتهم في الكلام من جديد لأنه بنص القانون آخر من يتكلم

القاضي — النظام، استمر أيها المتهم في دفاعك

المتهم — (يطلب كوبة ماء فيؤتى بها ويشربها دفعة واحدة)

وفي مدينة رومة اتصلت بجمعية سرية اسمها الكاربوناري أو الماقيا لا أذكر الآن. وكانت خطتنا القتل باسم الفضيلة ولكن لا فضيلة هناك ولا شبهها بل القتل لأجل القتل . ولكن بعض المتهورين من أعضاء المافيا أسلموني إلى جمعية « الطراطير السوداء والبراقع المخضبة » وكان مبدأ هؤلاء يدعو للقتل العنيف ، وقد قالوا لي إنهم قتلوا بطريقتهم العنيفة أكثر من مليون إنسان . كنا نعيش معظم الأيام عيشة الفضلاء الأخيار ، ونخادع الناس حتى نستدرجهم ، وكنا نرغم على الزواج وتأسيس العائلات فتزوجت انصياعاً لأمرهم ، ولكنني توعدت امرأتي بالذبح إذا هي حملت . ثم لجأت للعزل والانتفاع بالعقاقير والاصباغ ، حتى إذا حلّ موسم الجفاف ادعيت أنا ورفاقي أننا مسافرون في تجارة تسبقها رحلة بحرية وسفرة برية واجتمعنا عشرات من أشد الرجال بأساً وألفنا عصابات تجتمع سراً وترسم الخطط الدامية . وكنا نرابط في الطرق حيناً وحيناً في محطات السكك الحديدية وطوراً في الفنادق والمطاعم والمراقص وأندية الليل فاذا وقعت لنا فريسة من الأغنياء سطونا عليها وجردناها وفتكنا بها وهتكنا من الأعراض ما هتكنا ونهبنا من المال ما نهبنا ، ثم ذبحنا من استطعنا أن نذبح من الرجال والنساء والأطفال والجند والتجار والممثلات والمرضى والأطباء ، وكنا نسرق ونغتصب فرادى وأزواجاً ، ولكن لا نقتل إلا أفواجاً لأنه أنفى للريبة وأبعد عن الشبهات

النائب — هل يتكرم المتهم بأن يوضح الأسماء والأماكن والتواريخ مساعدة للعدالة وخدمة للفن وإكمالاً للحديث الذي يرويه إذا شاء

المتهم — لا أحب المقاطعة . ولكنني أجيب بأن شرفي لم ينزل إلى درك التجسس على زملائي

الأقدمين ، كما انحط شرف بعض الموظفين

(ضحك وتنهد وشهيق من الجمهور)

وكنا نقتل بالشنق بخيط من حرير أو قطعة رقيقة من القماش المفتول ، وكثيراً ما كنا نضحك ونلهو ونرقص ونحن نزهق أرواحهم ثم نواريهم التراب فى قبر مشترك كقبور الجنود بعد المواقع الكبرى ، هكذا قانون جمعيتنا المحترمة بعد تقاليد الحرب المظمى

القاضى — إنى أقترح على المتهم أن يغير التشبيه إذا شاء ولا أرغمه على شىء فهو حر فى طريقته

المحامى — وأنا أنضم إلى المحكمة فى هذه الرغبة ولذا أرجو شطب الكلام بعد لفظ « مشترك » من محضر الجلسة

المتهم — موافق . كنا لا نعاقب مطلقاً لأننا نبذل كل الجهد فى إخفاء معالم الجرائم ، ولم يكن أحد من الشرطة أو المحققين أو رجال البحوث الجنائية يستطيع أن يلقى القبض علينا ، لأننا كنا مواطنين متمايزين بالشهرة الطيبة والفضيلة ، فاذا حدث أن اعتقل أحدنا خطأ أو نتيجة لمهارة أحد رجال القانون ، فان الجمعية تتآزر تواً فى تخليصه ببذل النفس والنفيس من مال وهدايا ، على أننا لم نكن نقتل لأجل القتل ، ولكن كنا نقتل لأننا نقابل المثل بالمثل ونقتص من المجتمع الذى قضى علينا وعلى أهلينا وأحبابنا . فانه لم يكن يقبل بين ظهرانينا إلا موتور أو مظلوم أو ثاكل أو مخدوع من الرجال أو النساء ممن فقدوا ثقتهم فى العدل والرحمة والوعود العذبة والأمانى المعسولة . لقد هدمنا المجتمع ونحن على حسن النية ؛ فبنينا أنفسنا على سوء النية ثم شرعنا نهدمه . لقد كنا أخياراً فحاربنا فصرنا شراراً لنثأر لأنفسنا ، لقد تنمرنا حقناً للدماء الباقية

غير أنى فى نهاية الأمر ضجرت من قتل الأفراد واقتنعت أن الأولى والأفضل والأسرع والأخلق والأليق والألبق أن يكون القتل عاماً فانفلتُّ من روما بعد أن أتقنت الخطابة والكتابة ببضع لغات كالروسية والفرنسية والايطالية . وقصدت إلى بطرسبرج فى عهد القيصر نيقولا الثانى . وكنت أجيد التكلم بكل اللهجات . وقد قيل لى إن تعاليم الفوضى لا تتفق مع العقل وإنما تمشى مع الجنون ، ولا تستهين ببرودة الكهولة وإنما تريد حرارة الشباب ؛ وإن أشد مخاوفها الاحجام وأشد معضلاتها التروى . فهى لذلك تخشى العقلاء ولا تطمئن للرزانة ولا تسكن للمجادلة ، يجب أن يكون خدامها عمياً حتى لا يبصروا ومجانين حتى لا يحجموا ولا يفرقوا ، فهى لذلك لا تقع إلا على ثائر كره الانسانية فأراد أن يطعنها فى قلبها ورأسها ، أو مفلوك يطلب الغنى بعد الفقر . وكنت من الفريق الأول . فلما عشت ردحاً من الزمن فى عاصمة روسيا القديمة اتخذت خليلة من صفوف الثوار اسمها ناديا وكانت امرأة نصفاً تبلغ الثلاثين من عمرها ، وكانت كبنات جنسها تتقن سبع لغات على الأقل فأخذت تذكر لى أسماء رجال لم أسمع بهم من قبل وكانت كهمى فى الخلاعة والتصابى فلهوت بها وأهملت تعاليمها . وكنا نعيش على مائة روبل تدفعها لنا الجمعية السرية « بلافدسكاي

نبراسكا » مشاهرة . وأخيراً ألحقتنى باتباع زينون وكنت أظنه زعيما روسيا خطيراً فاذا به فيلسوف يونانى . وكانت ترغمنى على أن أستظهر بعض النبذ التى تدعى أن حياة الثائر فى روسيا بدونها مستحيلة من ذلك قولها « ليست القوانين نتاج الحكمة من أجدادنا ، وإنما هى وليدة عواطفهم وجبنهم وعصبياتهم واطماعهم ، وإن العلاج الذي نستمده من القوانين لهو شرٌ من الداء الذى تدعى هذه القوانين شفاءنا منه ، فاذا أبطلت هذه القوانين وأقفلت هذه المحاكم وترك الفصل فى النزاعات للمراجيح من الناس ، نشأ عن ذلك العدل الحقيقى » أو كقولها « الامتلاك هو السرقة بعينها » . أو هذه النبذة المعقدة الملتوية « إذا رجحت عقول الناس وتهذبت نفوسهم حتى يستطيعوا أن يتبعوا غرائزهم الطبيعية فلا تعود بهم حاجة إلى المحاكم ولا إلى الشرط والمعابد والأديان ، ولا إلى استعمال السكة والنقود وإنما يستعيضون عن الأخيرة بتبادل العوارف والأعطية »

ولكن هذه المذاهب لم تكن تروقنى لأننى لم أفهمها بعقلى وإنما صبوت إليها بقلبى وروحى معتقداً أنها تعيننى على الانتقام لأهلى . كان نزع أموال هؤلاء الأغنياء جميعاً وإغراقهم فى بحر من الدماء لا يكفينى فداء لأمى وأبى وإخوتى ، ولا سيما أخواتى البائسات . لقد كانت عاطفة العائلة قوية غاية القوة فى نفسى ، ولهذا أردت أن أتزوج من هذه الثائرة ناديا لتندمج معى أكثر من اندماج الحليلة الايطالية . وفى اليوم الذى صممت فيه على عقد زواجها اكتشفت خيانتها ! فقد كانت تخلو إلى طالب يهودي اسمه عمانوائيل كونسكى يقطن فى نفس المنزل الذى كنا نعيش فيه . فلما ظهرت على أمرها كتمته وعدلت عن الزواج بها . وذكرت لها بعد بضعة أيام أننى مسافر إلى الجنوب إلى ناحية أوديسا ، فاذا الأمر كازميرسكى رئيس الشعبة التاسعة التى أنتمى إليها فقالت لى « على بركة الله أيها الرفيق ! » كأنها كانت تنتظر فراقى بفارغ الصبر ، وهى تعلم أن السفر بين بطرسبرج وأوديسا لا يتم إلا فى ثلاثة أيام وليلتين ، فقلت لها : ألا تعدين لى حقيبة ثياب أو طعاما فى خرج كالأخراج التى يحملها الموجيك ؟ فقالت لى وهي متعجلة وقد زاغ بصرها « يمكنك أن تدبر أمورك بعشرين كوبيك أيها العملاق الثقيل » ووضعت فى جيبى قطعة صغيرة من النقود الفضية فقلت لها وأنا أقبلها نفاقاً وودت لو أمزق وجهها بأنيابى : « لا زاد ولا غطاء ! أترين اننى أموت برداً وجوعاً فى خدمة الانسانية ؟ » فقالت « إن الشعبة التاسعة تعد لك أسباب الراحة ! هيا أسرع فقد حان موعد القطار ! » أيتها الداعر المحرومة من الرجال قبل أن تعرفينى ؛ لقد التقطتك من الطريق وغذيتك من لحمى ودمي وعرق جبينى وخاطرت بالحياة لأجلك . أهكذا أتبيعيننى ببيع السماح لأجل شهوتك الصاخبة . ألست رجلا ؟ أم دأبك التغيير والتبديل كحمارة الوحش التى لا تقنع بقطيع كامل العدد والعدد من الذكور المهتاجة ؟ . هذا كلام العقل الباطن تبادلته ونفسى ، وقد تخيلت كل شيء يحدث فى غيبتى . ثم نطق العقل الواعى قائلا :

حسن ما تقولين ياحبيبتى ناديا . أستودعك الله ! وسارعت بالخروج وطرت على جناح السرعة إلى حى آخر من أحياء العاصمة وقضيت ليلتى فى أحضان امرأة مذنبة . وقبل أن أضطجع إلى جنبها فى الفراش الغريب الذي لم يألفه بدنى سليت صلاة قوية وصلت المرأة المذنبة إلى جانبي راكعة على ركبتيها . فسألتها : إن وجدت زوجاً كريماً يقوم بأودك ويكفيك مؤونة الدعارة أفتسكنين إليه ؟ فأجهشت بالبكاء وقالت : أسكت أيها الرفيق ولا تذكر هذه النعمة المقدسة فى هذا المكان الملعون . إننى كلما أذكر الطهر والعفاف والقناعة أكاد أجن شوقاً إليها .

قلت « فإن وجدته وأحسن إليك وبنى بك تخونينه مع أول قادم؟ فوضعت يدها على فمى، فقلت : وإن فعلت فما تستحقين ؟ قالت : أن يقتلنى وأن أذهب بلا دية ، وأن يباح دمى . فقهقهت حتى أمسكت بجنبي ، وكادت المرأة تظننى مجنوناً . لقد حاكمتها أى الغائبة على طريقة قومها وبلدها ومذهبها بعد أن صدر الحكم على لسان امرأة من قومها ومن طبقتها ، ولم أطق صبراً ، فأفرغت جيبي فى حجر البائسة المذنبة ، أعنى أعطيتها كل ما كنت أملك ، وقصدت إلى كاتم أسرار الشعبة وزرته فى غسق الليل ، وقلت له: إن الرئيس يطلب مسدساً وذخيرة فقال : أى رئيس ؟ قلت : الرئيس ٩ + ١٤

وكان هذا رمزه الأخير ، فأعطانى ما أطلب وقصدت إلى بيتى بعد نصف الليل بساعة وصعدت الدرج في الظلام الحالك ، ولم يكن الدفورنيك[1] ليعوقنى . ووضعت أذنى على خرق الباب فسمعت أصواتاً وحركات وتأوهات وهمساً ، فنظرت فرأيت فى ضوء المصباح الكهربائى ما أقنعنى بأن المرأة فى أحضان اليهودى ولمحت لحسن الحظ نافذة مفتوحة فعلمت أن الوصول إليها سهل من السطح فصعدت إليه وصبرت عليهما حتى أخذا نصيبهما من التعة والنوم وهبطت عليهما كالقضاء من النافذة وذبحت العاشق اليهودى من الوريد إلى الوريد كما تذبح الشاة ، ثم أيقظت ناديا ووضعت فوهة المسدس فى فمها . فلما رأت دماء معشوقها الطالب المبرى قالت لى : أنت الذى قتلته ؟ قلت نعم . قالت حسناً فعلت . إننى استدرجته لذلك ، فأنا أمقته وأحب أن تفعل به ما فعلت من زمن ولكنى لم أتمكن من اقناعك .. اخلع الآن ملابسك ونم فى حضنى حتى الصباح . قلت : وماذا نفعل بجثته ؟ قالت : أترك الأمر لتدبيرى ، ولكنها لم تنته من حبك تلك الحيلة حتى أفرغت المسدس فى حلقها وغادرت الدار كما دخلتها . وفررت إلى ساراتوف على نهر الفولجا واندسست بين اللاجين وعاشرت الموجيك فى المولد الكبير فى نيجنى نوفجورود[2] وتعلمت أغانيهم وأنشدت مواليهم وقصائدهم وأدوارهم ، وأتقنت أصواتهم ، وغيرت اسمى وعقيدتى طبعاً وجعلت نفسى من قازان . وذقت أنواع الجوع والخوف والفقر ، وكانت أشباح الأحباب والأعداء والقتلى تظهر لى فى نومى وصحوى . وتعلقت بكتاب « بيت الموتى » لحداثة عهده بالنشر ودخلت الكنيسة وتعلقت بالغناء أيام الأحد وأنا كافر بملة القسيس

(١) بواب الدار وجابيها وجاسوسها

(١) بالروسية المدينة الجديدة مشهورة بالموالد والأسواق .
(٢)

فلجل صوتي كأحسن ما يكون منشد يترنم بمزامير داود ، ولكن القسيس فاجأني وأنا أسرق من صندوق النذور فطردوني فخرجت إلى المدينة وأخذت أغني في الشوارع فسمعتني أولجستا نوفا [1] الممثلة المغنية فعشقت صوتي وأحبت جسمي فوهبتني بدنها وعلمتني فنها واشترتني من نفسي ، فصرت معشوقها وسيدها فأظهرتني على مسرح أوليانوف بيطرسبرج ، وقد رآني رئيس الشرطة في دور حلاق اشبيلية «فاشتبه» في لأنهم كانوا يبحثون عن ذابح ناديا وحبيبها ، فصفعته أولجستا نوفا ، وقالت له أنت مجنون ، يا برتريف ! هذا أخي في الرضاع ، إنه لم يغادر قصر أبي في تسار كوي تسيلو ، فكيف تتهمه بالتشرد والقتل ؟ فقلت لها : عفواً يا أختاه ! لا تصل بك الحماسة في الدفاع عني إلى هذه الدرجة ، إنني قاتل هذه المرأة ومعشوقها حقاً . فحدق في الشرطي ، وفتح فمه لينطق فقلت مقهقها : ولكن في المنام !! ...

وبدون عشق أولجا لم تبتسم لي الدنيا فوصلت إلى مسارح نيويورك وباريس ولندن وميلانو ، ثم عدت إلى روسيا ، وكانت أولجا قد أصيبت بالسل وعجزت عن الغناء ففقدت أنا الآخر صوتي كما حدث لتريلبي عند ما مات سفانجيلي فجأة [2] ، وعدت إلى الفقر ومقاساة الجوع حتى قبلت أن أمثل لقاء رغيفين من الخبز وقطعة من اللحم وقدح من الفودكا . إن التهمة التي وجهت إلي هي أنني نبشت قبر أولجا ستانوفا ، وأخذت بعض حليها التي تزينت بها قبل دفنها . إنها لجريمة كبيرة حقاً ، ولكن لا تنسوا أنني أنا الذي أمرت بدفنها بهذه الجواهر ، وكان يمكنني أن أستحوذ عليها ، لأنه لا قانون في الأرض ولا في السماء يحتم على الورثة أن يزينوا صدور الموتى ونحورهم وأصابعهم بالجواهر ، ولكنني فعلت ذلك زهداً في جواهرها ، وكنت في أشد الحاجة إليها ...

لقد نسبت الشرطة لي أنني تعديت على جسمها بفعل فاضح ، أفيعقل هذا الزعم ؟ إنها وشاية دنيئة ونميمة قذرة ، ونبأ كاذب متعفن لا يصدر إلا عن قلوب متأكلة بدود الحقد والوقيعة . هل أعتدي على هيكل عظمي وجسد لحقه البلى في وحدة الليل البهيم ؟ نعم « الهاوية » قصة خيالية ، ولكن الصندوق الخشبي المنمش المغلق اعتبروه خزانة ملأى بالجواهر ، لا سرير عروس معدة للزفاف ، إني أختنق . أموت . اسمحوا لي بالجلوس لقد انتهيت .

القاضي — إجلس أيها المتهم (يجلس وينثني عنقه من التعب) أيها المحلفون ! لقد سمعتم دفاع المتهم ، لست في حاجة إلى تلخيصه ، أو ترجيح إحدى الوجهتين . إن وجهة الاتهام قوية لا ريب ، ولكن المتهم أظهر ضعفها . لا تصغوا إلى القسم الأول من دفاعه . قد يكون اعترافاً خالياً لعقل عصفت به المصائب فانهكت قواه ، وقد يكون مظهراً من مظاهر الجنون المفاجيء . انه بلا ريب رجل نالت منه حوادث الدهر نيلاً كبيراً حتى اختل توازن تفكيره .

إن سجل سوابقه مفقود فلا يمكننا أن نعلم إن كانت قصته صحيحة أو كاذبة . أما الجرائم التي نسبها

(١) هذه بريادونا وسوبر أنوتوفيت أثناء الحرب

(٢) Trilby تأليف دي موريه من أروع القصص الحديث

إلى نفسه متطوعاً فقد تكون وقعت ولم تظهر للملأ للتحايل فى إخفاء معالمها . كما يمكن الافتراض بأنها لم تقع إلا فى دائرة ذهنه المريض فلا تتخذوا منها سنداً عندما تنسحبون إلى غرفة المداولة. لا تسمعوا صوتاً سوى صوت ضمائركم . ولا تذكروا إلا تهمة واحدة وهى التى يحاكم من أجلها هذا المتهم . هل نبش قبر صديقته أو لجاستانوفا ليسرق جواهرها أو ليعتدي على حرمة الموتى؟ إن كانت الجريمة لسرقة الجواهر فالجواب على الأسئلة جميعها بالنفى ، وإن كانت غايته انتهاك حرمة المقابر فالجواب على الأسئلة الأساسية بالاثبات . الله يعينكم

رئيس المحلفين — لسنا فى حاجة إلي المداولة . جوابنا على جميع الأسئلة بالنفى

القاضى — حكمت المحكمة ببراءة المتهم والافراج عنه فوراً ، إن لم يكن محبوساً لسبب آخر

الجمهور — ليحى العدل ! الرحمة فوق العدل ! يسقط الظالمون .. المجتمع يحتج. ليسقط الشرطة.. اليهود .

القاضى — (يا حارس ! اطلق سراح المتهم) وأخل قاعة الجلسة من جميع النظارة !

الحارس — ايزيدور فيدوروف، انهض تيقظ! لقد حكم القاضى ببراءتك (يلمسه بلطف ثم يهزه بعنف ثم ينظر فى وجهه ويجس يده وصدره) إن المتهم لايتحرك. لقد فارق الحياة وهذا الزبد فى شدقيه

القاضى — (يرفع قبعته وينهض) رفعت الجلسة وانتهت القضية !!

الجمهور — (يرتل : أيها الرب الرحيم تقبل روحه فى ملكوت سماواتك فقد كان أعدل من كثير من الكبراء) .

محمد لطفى جمعة

رفائيـــــل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

—

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

—

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً

أطلبوا مؤلفات

محمود تيمور

وهى : الحاج شلبى . الاطلال أبو على عامل أرتست . الشيخ عفا الله الوثبة الأولى . قلب غانية . نشوء القصة وتطورها

من جميع مكاتب القطر الشهيرة

« كتاب فرعون الصغير وقصص أخرى »

يظهر في نهاية العام